حول مناظرة وكتاب

نقد ومراجعة

للدكتور بشر فارس

شيء واحد لفت نظري فيما كتبه — في العدد الماضي من الرسالة — الأستاذ إسماعيل أحمد أدهم خريج جامعة موسكو لسنة ١٩٣٣ كما جاء في مجلة الحديث، حلب ١٩٣٨

وأما الذي يكتنف ذلك الشيء من الكلام المرتجل ارتجالاً فلا شأن لي به. وقد أخبرت القارئ من عدة بن أن قلمي لا يقوى على مجاراة غيره في ذلك الضرب من الكلام. ولولا غضبي للعلم الحق وغيرتي على النقد الصحيح ما كتبت هذا الفصل

قال الأستاذ أدهم: « إن الجملة الفرنسية Une somme de rapports sociaux التي تنظر إليها العبارة العربية ليست من خلقه (يعنيني)، فقد تكرر ذكرها في كتابات العالم الاجتماعي دوركايم Durkheim وخصوصاً في مجموعة محاضراته عن علم الاجتماع في السوربون: ص ١١، ١٣، ٢٤، ٢٦ مثلاً »

بهذه العبارة يريد الدكتور أدهم أن يقيم البرهان على أن تلك الجملة الفرنسية التي « ليست من خلقي » قد وصلت إلى علمه قبل قراءة كتابي « مباحث عربية ». وإني لأرى الأستاذ أدهم يتقول عليّ: فإني لم أقل قط إني «خلقت» تلك الجملة الفرنسية، إذ أني في « مباحث عربية » (راجع ص ١٦) أضع الاصطلاحات العربية — من طريق المطالعة أو الاجتهاد — ثم أثبت إزاءها ما ينظر إليها في اللغات الإفرنجية، وذلك رغبة في إغناء لغتنا (وهل أنا أغنى لغات الفرنجة؟). وعندي أنه كان يغني الأستاذ أدهم عن عبارته المذكورة أن يثبت لنا الجملة التي استعملها في « مجلة المعهد الروسي للدراسات الإسلامية » — وذلك على وجهها — ولكنه لم يفعل بل لم يبعث إلى بالمجلة كما رجوت منه. وكان بودي أن أرى كيف استعمل المصطلح العربي الخاص بعلم الاجتماع دون غيره، الموضوع في كتابي وضعاً فلسفياً

ومن الظريف أن يذهب الأستاذ أدهم في إقامة برهانه إلى ما لا نرضاه له. فقد استشهد على وجه التخصيص بـ « مجموعة محاضرات دوركايم عن علم الاجتماع في السوربون» ثم عيّن فقال: « ص ١١، ١٣، ٢٤، ٢٦ » ثم تلطّف فقال: « مثلاً »

والذي في الحقيقة أن دوركايم استعمل هذه الجملة غير مرة، وكذلك تلامذته وتلامذة تلامذته، وعلى الأستاذ أدهم التفتيش. غير أن دوركايم لم يستعمل هذه الجملة في « مجموعة محاضراته عن علم الاجتماع في السوربون»، وذلك بالرغم من الكلمة: « مثلاً » التي جرت على قلم الأستاذ أدهم، وفيها ما فيها من قوة الإيهام

إني لم أسمع قط بـ « مجموعة محاضرات دوركايم عن علم الاجتماع في السوربون »، مع أني قرأت كتب دوركايم — وهي غير كثيرة — راضياً أو كارهاً، وأنا أحصّل علم الاجتماع على ألوانه — فيما أحصل من فنون الفلسفة — في السوربون نفسها، وذلك زهاء سبع سنين. وقد سألت اليوم زميلي في التحصيل في السوربون، الصديق الدكتور علي عبد الواحد وافي — مدرس علم الاجتماع بكلية الآداب لجامعة فؤاد الأول — هل يعرف تلك « المجموعة »؟ فأخبرني قال: « لا وجود لها ». أضف إلى هذا أن بين يدي الآن كتاباً فيه ثبت المؤلفات في علم الاجتماع (ولاسيما التي تهم الطالب، وأي شيء يهم الطالب مثل المحاضرات، بل محاضرات دوركايم وهو إمام مدرسة علم الاجتماع الحديث في

فرنسة ؟). وهذا الكتاب عنوانه : Le guide de l'Etudiant en Sociologie ، وليس فيه ذكر لتلك « المجموعة » . واعلم أن هذا الكتاب مطبوع فى باريس ثمانى سنين بعد وفاة دوركايم فضلاً عن أن أحد صاحبيه من تلامذة دوركايم نفسه ، واسمه Bouglé ، فهو أعلم منا بما أخرج أستاذه لطلاب علم الاجتماع

هذا إلا إذا خرجت تلك « المجموعة » فى موسكو حيث تلقى الأستاذ أدهم شتى العلوم . فرجائى منه إذن أن يعين لى «المجموعة» بحيث يثبت العنوان الفرنسى وتاريخ الطبع ومكانه . فإنى جد حريص على أن أخبر أساتذتى وزملائى من علماء الاجتماع بوجود تلك «المجموعة» ؛ وما أظنهم إلا ناشطين لها، وما إخالها إلا واقعة موقع الحدث

* * *

ولعل تلك « المجموعة » ــ وكلها سر ــ موجودة على خلاف ما أقوله وما يقوله صديق الدكتور على عبد الواحد وافى ، وعلى خلاف ما جاء فى الكتاب المتقدم ذكره . فتكون القصة أن الأستاذ أدهم لم يحسن نقل عنوان الكتاب من الفرنسية إلى العربية ، وذلك لسببين :

أما الأول فلأن العربية ليست « لغته الأصلية » ، كما قال فى العدد السابق من الرسالة حين أخذ يعتذر إلىّ من اقتباس تعبيرات لى[1] .

وأما السبب الثانى فلأن علمه باللغة الفرنسية لا يتيسّر له مثل ذلك النقل . وقد ذكرتُ هذا وعلّلته مكرّراً ، لعددين مضيا ، فردّ الأستاذ أدهم قال : « إن اللغة الفرنسية ليست وقفاً علىّ »

(١) ومن مقتبساته الأخيرة أنه هجم على ما قاله الدكتور زكي مبارك فى الأستاذ أحمد أمين (الرسالة العدد ٣١٠ ص ١١٤٠ الفقرتان الأوليان) وصبه على تمسوخا فى فاتحة مقاله الأخير . وأسفى شديد أنه أخطأ المرمى ، إذ البصير بمواقع ألفاظ لغتنا الفطيفة يعلم أن الكتابة « المرتجلة » ليست موضع مدح ، وعلى ذلك فانى أشكر للأستاذ أدهم نفيه إياها عنى . ومثل هجوم الأستاذ أدهم على ما قاله الدكتور زكي مبارك فى الأستاذ أحمد أمين ثم صبه على كثل هجومه على مذهبي فى مسرحيتى « مفرق الطريق » وصبه على مسرحيات الأستاذ توفيق الحكيم . ذلك أسلوب من النقد طريف ! ولعل سره عند الأستاذ أدهم ، فهو صاحب تحقيقات خاصة به : منها جزمه أن الأستاذ توفيق الحكيم ولد سنة ١٩٠٣ لا سنة ١٨٩٨ كما يقول الأستاذ الحكيم نفسه ويؤكد . إلا أن الأستاذ أدهم يحتج بأن ما يقوله الأستاذ الحكيم ويؤكده « لا يتفق مع هيكل التحقيقات التى قام هو بها » (راجع هذه القصة النادرة فى مجلة الحديث سنة ١٩٣٩ ص ٣٣٢)

معاذ الله أن تكون الفرنسية وقفاً على ! غير أنى ماذا أصنع وفى نقد الأستاذ أدهم لكتابى « مباحث عربية » ما يؤيد ما ذكرته من عددين ؟ ففى رأى الأستاذ أدهم (راجع الرسالة العدد ٣١١ ص ١٢٢٩) أن استعمالى لفظ « السلوك » لأحد مشتقات المصدر الفرنسي (وهو moralité) تارةً ، ولفظ « الأخلاقيات » لمشتق آخر للمصدر نفسه (وهو morale بمعنى éthique) تارةً أخرى مما « يوقع فى اللبس والاختلاط » . والواقع الذى أثبتُه على كُرهٍ أن الأستاذ أدهم لم يدرك الفرق القائم بين اللفظين الفرنسيين : moralité و morale (راجع « مباحث عربية » ص ٣٦ ، ٥٦ خاصة) ، فالأول يدل على أعمال المرء من الناحية «الأخلاقية»، والثانى يفيد «علم الأخلاق». وحسب الأستاذ أدهم أن يستفسر معجماً فرنسياً للمدارس ذينك اللفظين .

ولك أن تقول : فإذا شقّ على الأستاذ أدهم أن يحسن النقل من الفرنسية إلى العربية فكيف ارتجل مصدراً ارتجالاً ثم استشهد به وأثبت بضع صفحات « على جهة التمثيل » ؟

الحق أنى أود أن أعجب عجبَك ، ولكن ما قولك فى هذا الاختلاق :

قال الأستاذ أدهم فى نقده لكتاب «مباحث عربية» (الرسالة العدد ٣١١ ص١٢٢٩) : « يعتبر الباحث (يعنينى) كلمة البصيرة مقابلاً (كذا) intuition ص ٢٢٥٧ ، والغريب أنى لم أثبت كلمة intuition إزاء كلمة البصيرة الواردة فى ص ٥٧ من كتابى ولا فى صفحة غيرها . فمن أين جاء الأستاذ أدهم بكلمة intuition وكيف جعلنى « أعتبر » ما يجهل هل أنا « معتبره » ؟

ثم لِمَ لا يرتجل الأستاذ أدهم المراجع ويبتدع المصادر، وهو الذى استشهد بالإصحاح الرابع عشر من « سفر دانيال» من العهد القديم (الكتاب المقدّس) ثم بالجزء الثالث من « الفهرست » لابن النديم ، يوم نقد « مباحث عربية » (الرسالة العدد ٣١٢ ص ١٢٧٤ ثم ص ١٢٧٥) . وإليك بيان ذلك :

أولاً — قال الأستاذ أدهم : « ومما يحسن بى الإشارة إليه أن كلمة المروءة وردت فى اللغة العبرية ، وهى من أخوات اللغات العربية ، نازعةً فيها لمعنى السيادة (دانيال ١٤—١٩ ومواد زرع

فى ملتقى اللغتين ج ١ ص ٨٩ — ٩١) »

والذى فى كتاب « ملتقى اللغتين : العبرية والعربية » للأستاذ مراد فرج : « مرا : فتح فكسر ممال ممدود بمعنى السيد وولىّ الأمر — دانيال ١٤ — ١٩ والأصل العبرى ١٦ » (يريد ، على أسلوب جمهور العلماء : الإصحاح ١٤ والآية ١٩ فى الأصل العربى والآية ١٦ فى الأصل العبرى)

ومن المستحيل أن يكتب الأستاذ فرج : الإصحاح ١٤ (الرابع عشر)، لأن «سفردانيال» اثنا عشر إصحاحاً فقط ! ومن هنا تبين لى أن الإصحاح ١٤ من غلطات الطبع . فسألت فى ذلك زميلى الدكتور مراد كامل — مدرس اللغات السامية بكلية الآداب لجامعة فؤاد الأول — فأخبرنى بعد المراجعة قال : « إن الصواب هنا : الإصحاح ٤ (الرابع) والآية ١٦ و ٢١ »

وهكذا ترى كيف جاء الأستاذ أدهم ونقل ما فى كتاب الأستاذ فرج من غير تحقيق ولا روية . والظريف أنه استشهد بسفر دانيال أول ما استشهد ، إذ قال : « كيت وكيت : دانيال ١٤ — ١٩ ومراد فرج فى ملتقى اللغتين ج ١ ص ٨٩ — ٩١ » كأنه اطلع على سفر دانيال قبل « ملتقى اللغتين » لفرج

ثانياً — قال الأستاذ أدهم — عند الكلام على أنساب العرب — : « ولكنا على الرغم من ذلك ، نلاحظ جواز أن تكون القبيلة منشؤها اجتماع عدة بطون وأفخاذ من قبائل مختلفة : ابن حزم نقلاً عن الفهرست لابن النديم ج ٣ (كذا) ص ١٨٧ . والمراجع العربية تروى أن قبائل تنوخ وغسان والعتق تكونت من شتيت البطون التى تناثرت فى الصحراء من القبائل العربية التى تفرقت بعد تركها مواطنها فى الجنوب : الفهرست ج ٣ (كذا) ص ١٨٧ وكذلك لنا (يعنى كتاباً له) : علم الأنساب العربية ص ١٣ — ١٤ »

على هذا النحو ترى الجزء الثالث (؟) من « الفهرست » لابن النديم يُثبَت مرتين على سبيل المرجع. وليس للأستاذ أدهم أن يستنجد بغلط الطبع ، إذ فى كتابه الذى ذكره : « علم الأنساب العربية » : (مجلة الحديث ، حلب ١٩٣٨ ص ١٤) ما جاء فى نقده حرفاً بحرف .

هذا والمعلوم أن « الفهرست » لابن النديم طبع مرتين : مرةً فى ليبتسج Leipzig سنة ١٨٧٢ ، ومرة فى مصر سنة ١٣٤٨ للهجرة . وفى كلتا المرتين خرج « الفهرست » فى جزء واحد . والذى حدث فى هذا الموطن أن الأستاذ أدهم اقتبس المرجع إلى « الفهرست » من كتاب من الكتب الحديثة من غير أن يراجع المظِنّة ، دأبه مع « سفر دانيال » . ولو راجعها لعلم أن الكلام على الأنساب يقع فى « المقالة الثالثة » (« الفن الأول : فى أخبار الأخباريين والنسابين... ») من كتاب الفهرست، لا فى الجزء الثالث منه . ومن هنا يتبين أنه ظن المقالة جزءاً لحظةَ اقتبس المرجع . وأما الصفحة التى يعيِّنها (ص ١٨٧) فلا أثر فيها لما يذكره. بل إنى قرأت الفن الأول من « الجزء الثالث » كله (طبعة مصر ، وهكذا للأستاذ أدهم أن يقول أن حديثه فى طبعة ليبتسج !) ولم أعثر على حديث الأستاذ أدهم .

وأما قوله فى مرجعه : « ابن حزم نقلاً عن الفهرست ... » فغاية الاشتباه . لأنه إذا قال ابن حزم من غير تعيين أراد صاحب « الفصل فى الملل والأهواء والنحل» . وعليه فلنا أن نسأل الأستاذ أدهم أى كتاب لابن حزم يعنى ، ولابن حزم المولود سنة ٣٨٣ (أىّ ست سنوات بعد تصنيف الفهرست) ستة وثلاثون مؤلَّفاً ؟ راجع : بروكلمن « تكملة تاريخ الآداب العربية » ليدن ١٩٣٧ ج ١ ص ٦٩٤ — ٦٩٧ . ثم إنى أعلم أن لابن حزم كتاباً لا يزال مخطوطاً ، عنوانه : « جمهرة النسب » ، وقد نَشَر جانباً منه Khuda Bukhsh فى كتابه: Contributions to the History of Islamic Civilization فهل يعنى الأستاذ أدهم فى مرجعه ذلك المخطوط ؟ وإذن فأين اسم الكتاب وأين الصفحة ، كما يصنع الناقد الثبت والباحث الثقة ؟

وغاية القول هنا: أين الجزء الثالث من الفهرست، وأين النص المستشهد به فى ص ١٨٧ ، بل فى الفن الأول من المقالة الثالثة من الفهرست ؟ ثم من ابن حزم هذا ، وما كتابه ؟

* * *

إنى والله ليحزننى أن أثبت كل ذلك ، وليزيدنّ فى حزنى أن الأستاذ أدهم حدّثته نفسه بأن يكتب : «وأظن أن الدكتور بشر فارس لا ينكر علينا أننا أكثر الكاتبين فى العربية استقصاء

للمصادر » (الرسالة العدد ٣١١ ص ١٢٢٥) . فليطمئنّ الأستاذ إلى أنى لا أنكر عليه ذلك ، وليطمئن أيضاً إلى أن « الكاتبين فى العربية » لن ينازعوه الغلبة فى استقصاء المصادر على طريقته . إنما العلم دقة وأمانة . . .

وإذا امتد الحديث إلى استقصاء المصادر فما ضرّ الأستاذ أدهم لو راجع معجمات الفلسفة وكتبها حين تكلم على كلمة intuition فى نقده لمباحث عربية كما تقدم . فقد قال : « وهذا (أى : الانتقال دفعة واحدة من المبادئ إلى النتائج) ما يفيده معنى لفظة intuition اصطلاحياً ولغوياً كما يستفاد من مراجعة معاجم اللغة الفرنسية »

فهل يصاب المصطلح الفلسفى على وجهه التام والخاص جميعاً فى « معاجم اللغة » ؟ إنى هنا أرشد الأستاذ أدهم إلى « المعجم الاصطلاحى والنقدى للفلسفة » للأستاذ Lalande (باريس ١٩٣٢) فثمة يدرى كيف يذهب الاصطلاح الفرنسى إلى أبعد مما يظن . وله أن يقرأ أيضاً ـ ليُحكم معرفة المصطلح لهذا العهد مثلاً ـ كتابين للفيلسوف برجسون Bergson وهما : Essai sur les données immédiates de la conscience و L'Evolution créatrice (الباب الثانى) ثم كتاباً للعالم بوانكاريه عنوانه Science et méthode (الفصل الأول من الباب الثالث)

وإذا أراد الأستاذ أدهم أن يعرف ما تحت مصطلح intuition قبل هذا المهد فعليه ببعض ما كتبه Descartes و Leibnitz و Kant خاصةً فى « نقد العقل الصرف » ثم شوبنهاور

هذا من جهة المصطلحات الفلسفية ، وأما من جهة المواضعات العربية فما ضر الأستاذ أدهم لو راجع معجمات اللغة ونظر فى دواوينها قبل أن يكتب فى نقد « مباحث عربية » (الرسالة ، العدد ٣١١ ص ١٢٢٩) : « ثم عندك قول الكاتب (يعنينى) إن للفظة الشرف مفادات متجاورة تارة ، متباينة أخرى » . ثم يزيد : « ففى هذا التعبير لفظة المتجاور تفيد إفرنجيًّا معنى synonyme والقصور واضح فى التعبير العربى (كذا !) فضلاً عن أن التعبير غير مستقيم من جهة البناء اللغوى (كذا ؟) ولكى تتسق مفادات العبارة لا بد من إبدال لفظة : المتجاورة من المجلة بالمتشابهة لأنها أدل على المعنى وأكثر اتساقاً فى الجملة »

على أنى لا أحب أن أسأل الأستاذ أدهم كيف يناقشنا فى لغتنا وهو لا يزال يأخذها عنا ، كما اعترف بذلك فى خاتمة مقاله المنشور فى العدد الماضي . إن كل ما أبتغيه أن أرشده إلى كتب اللغة العربية ليتبيّن أن معنى لفظة synonyme تؤديه فى العربية الفصحى لفظة « المترادف » (وما هذه اللفظة عنيتُ فى جملتى المذكورة قبل) . وأعلم أن كلمة synonyme فى الإفرنجية هى الألفاظ المفردة الدالة على معنى واحد (أو متقارب) . وإلى الأستاذ أدهم « مثلاً » فصلاً قريب المنال فى « المزهر » للسيوطى (النوع السابع والعشرون)[1]

* * *

العلم فى مصر أمسى شيئاً مقدساً له سَدَنَته وله حراسُه . فكيف يأخذنا القول بالظن والكلام المتحدى والجدال المتحكم والتظاهر بالتثبت والدراية ؟ . . .

فالروِيَّةَ الروِيَّةَ عند الإقبال على الاشتغال بالعلم أو على نقد من توفر عليه . والنقد أمر لا ثمرة فيه إذا حاد عن خدمة العلم وحده . والنقد للعلم مصباح على أن يكون الزيت لا دخل فيه !

* * *

بقى أن أودع القارئ ، وأنا راحل إلى أوربة بعد أربعة أيام . وإنى لشاكر له صبره ، فقد أطلت الكتابة فى سبيل « وضع الشىء موضعه » . ورجائى منه أن يتحقق ما جاء فى هذه الكلمة : فكتاب « الفهرست » و « سفر دانيال » ـ مثلاً ـ مبذولان لكل أحد . وإنى لمطمئن إلى أن القارئ سيعرف ـ من طريق المراجعة والتحقيق ـ كيف ينظر عنى فيما يبدو لهذا أو لذاك أن يكتب ويكتب . والسلام ، وإلى اللقاء بعد أربعة أشهر

بشر فارس
دكتور فى الآداب من السوربون

(١) هذه مراجعة لبعض أقوال الأستاذ أدهم فى « مباحث عربية » . ويجد القارىء فى مقتطف أغسطس المقبل (باب المراسلة والمناظرة) مراجعة كل ما قاله الأستاذ أدهم . وذلك إلى جانب النظر فى آراء طائفة من الكتاب الذين عرضوا لنقد ذلك الكتاب على بصيرة .